06-maha ofaish(3):Layout 1 5/13/12 7:07 PM Page 132

هل اللّه يرسل الأمراض؟

مها عفيش

للأستاذ اللاهوتيّ الفرنسيّ جان كلود لارشي كتاب بعنوان «لاهوت المرض»[1] أبدى فيه الكثيرون رأيًا إيجابيًّا. ولا شكّ في أنّ المضمون دسم والمعالجة شائقة والموضوع المطروح ذو أهمّيّة للكثير من الناس، إن لم يكن للجميع. والمعروف عالميًّا أنّ لارشي أحد أهمّ اللاهوتيّين المعاصرين، إلى جانب كونه متضلّعًا من كتابات آباء الكنيسة، وتشهد كتبه الكثيرة على موهبته الغنيّة في البحث والدراسة المعمّقة. وقد أغنى الكنيسة بدراساته وأبحاثه.

كلّ هذا، ولكنّنا لا نستطيع أن نتجاهل الفكرة التي يدافع عنها الأستاذ لارشي في كتابه المذكور، ويكرّرها، وهي أنّ المرض هو «عقاب وقصاص من اللّه». إذ نقرأ في الصفحة ٢٥ منه: «كذلك يرى الآباء في المرض وكلّ أعمال الشرّ الناجمة عن الخطيئة الأصليّة عقابًا وقصاصًا». ورغم أنّه يتابع: «إلاّ أنّ فكرة العقوبة هذه يجب ألاّ تُفهم على أنّها صادرة عن إله ظالم منتقم» (كيف يكون المرض انتقامًا ولا يكون اللّه منتقِمًا؟). لكنّه يعود ويكرّر في الصفحة ٧٧ من الكتاب ذاته: «يوضح الآباء أنّ المرض يبيِّن التربية الإلهيّة. إنّه، بحسب قولهم أيضًا في الموضوع عينه، إصلاح يفرضه اللّه على الإنسان بسبب خطاياه. يجب ألا تُفهم هذه العبارة بالمعنى السلبيّ... بل الإيجابيّ... التقويم والإصلاح والتقدّم والشفاء». وأيضًا في الصفحة ٧٩: «اللّه... يقودهم إلى الفضيلة عبر إصابتهم بالأمراض والمحن التي لا يريدونها...».

لكنّ الواقع مختلف. ولنأخذ في البدء المثال الأسمى: حياة ربّنا يسوع على الأرض.

يسوع شفى الأمراض خلال حياته على الأرض

يحفل العهد الجديد بقصص الربّ يسوع ـ الإله المتجسّد الذي، خلال حياته على الأرض، انحنى على المتألّمين برحمة مداويًا جراحهم وشافيًا آلامهم. وعبر أمراضهم، شفى أيضًا نفوسهم وخلّصهم من خطاياهم. فكان يشفي الجسد والروح معًا. فلو كان اللّه هو من يرسل الأمراض، فهل كان ليشفيها بنفسه؟

أعاد الربّ يسوع بنفسه البصر للأعمى (قائلاً: «لا هَذَا أَخْطَأَ ولا أَبَوَاه...» (يوحنّا ٩: ٣)، والسمعَ والنطق للأصم الأبكم، وأقام المخلّع، وشفى حماة بطرس المحمومة... محقّقًا نبوءة العهد القديم: «هو احتمل أمراضنا، وحمل أوجاعنا» (أشعياء ٥٣: ٤– ٥).

ولم يكتف بذلك، بل طلب من تلاميذه أيضًا: «اشفوا

١– جان كلود لارشي، لاهوت المرض، تعاونيّة النور للنشر والتوزيع ٢٠١٠.

06-maha ofaish(3):Layout 1 5/13/12 7:07 PM Page 133

مَرْضى، طَهِّرُوا بُرْصًا، أقيمُوا مَوْتَى...» (متّى ١٠: ٨). فخرج هؤلاء يبشّرون «وكَرَزوا في كُلِّ مكانٍ، والرَّبُّ يَعْمَل مَعَهم ويُثَبِّتُ الكَلامَ بالآياتِ التابعَة» (مرقس ١٦: ٢٠). وهو نفسه، له المجد، قدَّم مثل «السامريّ الشفوق»، وفي النهاية طلب من الجميع أن يحذوا حذوه قائلاً: «اِذْهَبْ وَاصْنَعْ أَنْتَ أَيْضاً كَذَلِك» (لوقا ١٠).

الكنيسة بعد تأسيسها

منذ البدء عُرفت المسيحيّة أنّها ديانة الرحمة. وتميّز المسيحيّون الأوائل باهتمامهم بالمرضى والأرامل والأيتام والفقراء. وفي تاريخ الكنيسة الأرثوذكسيّة الغنيّ العديد من الأطبّاء الذي تقدّسوا بعطاءاتهم وبشفائهم، بنعمة اللّه، الكثير من المرضى. من بين الأشهر: القدّيسان كزما ودميانوس اللذان عاشا خلال حُكم ديوكليتيانوس ومكسيميانوس، ودُعيا أيضًا «الماقتَي الفضّة» لأنّهما كانا يشفيان الناس من دون مقابل. وكانا يعزوان كلّ تلك الأشفية إلى المسيح «الطبيب الأعظم».

وفي القرن الرابع، أقامت الكنيسة الأرثوذكسيّة مراكز استشفائيّة واجتماعيّة عدّة كانت من ضمنها ملاجئ للفقراء والأيتام والمسنّين ومستشفيات، وكان الكثير من هذه المراكز مرتبطًا بأديار. فكان معظم من يقدّمون العناية للمرضى هم من الرهبان أنفسهم. والمعروف أنّ القدّيس باسيليوس الكبير تلقّى علومًا طبّيّة، وكان يساعد هؤلاء الرهبان في العناية بأجساد المرضى وأرواحهم في آن.

كما قال القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم إنّ كنيسة المسيح بأسرها هي مستشفى، مشيرًا إلى العلاقة بين شفاء الجسد والنفس التي اعتمدها القدّيسون المداوون. وكان من عادته أن يعتمد مثَل «السامريّ الشفوق»نموذجًا يظهر فيه المسيح، الطبيب الأعظم، على شكل السامريّ نفسه، الذي يأتي إلى البشريّة المحطّمة حاملاً إليها الشفاء. وأمّا النزْل الذي يضع فيه الرجل المريض، فهو الكنيسة.

والواقع أنّ اللّه قد سمح، برحمته الغنيّة، أن يحرز الطبّ تقدّمًا هائلاً. كما نعرف من السنكسارات أنّ العديد من قدّيسيه قد تلقّوا العلاج لدى الأطبّاء وفي المستشفيات.

يكتب الأب Fr. Stanley S. Harakas، وهو كاهن في الكنيسة الأرثوذكسيّة وبروفسور في المدرسة اللاهوتيّة في بروكلين، أنّ العلاج الطبّيّ «يعتبر أيضًا تعاونًا بشريًّا مع أهداف اللّه وقصده الشفائيّ... الأمر الذي يطلق عليه، تقنيًّا، اسم «سنرجيا»... وهكذا فإنّ الأدوية في المبدأ... وحتّى العمليّات الجراحيّة قد اعتُبرت، في الكنيسة بشكل عامّ على مرّ التاريخ، أنّها أمور موافقة وحتّى مرغوب فيها في إطار التعاون مع اللّه في مجال الشفاء من الأسقام البشريّة...».

ليتورجيًّا

ترجمت الكنيسة هذا الموقف في صلواتها وخدمها الطقسيّة. فهي تذكر المرضى في العديد من صلواتها وتطلب لهم الشفاء. كما تقيم خدمة تقديس الزيت في يوم الأربعاء العظيم من كلّ سنة، التي يمكن أن تقام أيضًا اختياريًّا في أيّ يوم من السنة، إذا دعت الحاجة، وفيها يقول الكاهن: «يمسح عبد (أمة) اللّه فلان (ة) لشفاء النفس والجسد»، وذلك تطبيقًا لما ورد على لسان الرسول: «هَل

06-maha ofaish(3):Layout 1 5/13/12 7:07 PM Page 134

فيكُم مَريض؟ فليَستَدعِ شُيوخَ الكَنيسَةِ ليُصَلُّوا علَيهِ ويَدهنوهُ بِالزَّيتِ بِاَسمِ الرَّبِّ. فالصَّلاةُ معَ الإيمانِ تُخَلِّصُ المَريضَ، والرَّبُّ يُعافيهِ» (يعقوب ٥: ١٤- ١٥).

ومن كان مريضًا ودعا الكاهن، فسيسمعه يصلّي عليه هذا الإفشين: «أيّها السيّد الضابط الكلّ، يا طبيب النفوس والأجساد... افتقد برحمتك أخانا هذا (فلانًا) المريض، وامدد ساعدك المملوء برءًا وعافية، وأنهضه من سريره، واشفه من مرضه... وإن كان فيه خطايا وآثام، فاترك واغفر واصفح له، لأجل محبّتك للبشر...» (من كتاب الأفخولوجيّ).

كما رتّبت الكنيسة المقدّسة أن يُتلى يوميًّا، في صلاة نصف الليل اليوميّة، هذا الإفشين للقدّيس باسيليوس: «إيّاك نبارك، أيّها الإله العليّ وربّ الرحمة الصانع إلينا دائمًا العظائم التي لا يستقصى أثرها والمعجزات المجيدة التي لا تحصى، المانح لنا النوم راحة لضعفنا وتخفيفًا من تعب الجسد الكثير النصب[٢]....» (راجع: كتاب السواعي الكبير). وفي هذا إشارة إلى اهتمام اللّه العليّ بضعف تركيبنا الجسديّ، وترتيبه، برحمته الكلّيّة، نظامَ حياة البشر اليوميّة بما يتناسب مع هذا الواقع.

وتُكمل الإفخارستيّا عمليّة الشفاء التي بدأتها المعموديّة. ونسمع الكاهن يقول في القدّاس الإلهيّ، مباشرة بعد استحالة القرابين: «نشكرك، أيّها الملك غير المنظور، لأنّك، بقدرتك التي لا تُحصى، خلقت كلَّ البرايا... اطّلع من السماء على الذين حنوا لك رؤوسهم... سهِّل أن تكون هذه القدسات لخيرنا جميعًا... واشفِ المرضى، يا طبيب النفوس والأجساد».

كما تظهر، في بعض صلوات الكنيسة أيضًا، العلاقة بين النفس والجسد، ومنها التريصاجيون المعروف: «أيّها الثالوث القدّوس ارحمنا، يا ربّ اغفر خطايانا، يا سيّد تجاوز عن سيئاتنا، يا قدّوس اطلع واشفِ أمراضنا من أجل اسمك...».

مفهوم المرض في الكنيسة الأرثوذكسية

توافق الآباء تقريبًا على اعتبار سقطة آدم سببًا لتشوّه صورة اللّه فينا وتهشّم طبيعتنا وللأمراض الجسديّة والروحيّة، والموت. كما يجمع الآباء على أنّ الإنسان الأوّل، قبل السقطة، لم يكن عرضة للفساد والتآكل والموت. فقد خُلق، ليعيش خالدًا، بجسد غير بالٍ. لم يكن مخلوقًا، ليصاب بالمرض. لكنّه، بسقطته، عرّض جسده لكلّ أنواع الأسقام، والتعب، والجوع، والشيخوخة، والموت. ومن آدم انتقل الفساد إلى الجنس البشريّ بكامله بالتناسل. فآدم المصاب بقابليّة الموت لا يمكن أن ينجب أولادًا غير مائتين.

ويعزو القدّيس يوحنّا الدمشقيّ سبب الأمراض إلى السقطة بالقول: «بانتقال وضع الجدّين الخاطئ إلى كلّ المتحدّرين من آدم، من طريق الولادة، تنتقل أيضًا إليهم كلّ النتائج التي أصابت جدّينا بعد السقطة: تشوّه صورة اللّه، وظلام الرشد، وفساد الإرادة، ونجاسة القلب،

٢- الإعياء والتعب (لسان العرب)
٣- Saint Jean Damascène, De la foi, II 28 (961)

06-maha ofaish(3):Layout 1 5/13/12 7:07 PM Page 135

والمرض والألم والموت»[٣].

وكتب القدّيس باسيليوس: «إنّه لمجنون في الحقيقة من يقول إن اللّه غير موجود... ومثله أيضًا من يقول إنّ اللّه هو مصدر الشرور... فهو يسأل إذًا: من أين تأتي الأمراض؟ من أين يأتي الموت الذي يحضر قبل أوانه؟ من أين تدمير المدن بالكامل، وغرق السفن، والحروب والأوبئة؟ لأنّه يقول إنّها هي أيضًا شرّيرة، وكلّها خليقة اللّه. هل عندنا غير اللّه، لنلومه على الأمور التي تحدث؟... وأيضًا فالشرور في الجحيم لا تصدر عن اللّه، بل نحن مصدرها. لأنّ بدء الخطيئة وجذرها هما فينا وفي تحديدنا الذاتيّ... وأكثر من ذلك، فإنّ ما تعيه حواسنا على أنّه شرّ هو أمر، وما هو شرّ في طبيعته ذاتها أمر آخر. وأمّا ما هو شر بالطبيعة فقد أنتجناه نحن»[٤].

كما يستشهد القدّيس بوبوفيتش بالقدّيس ثيوفيلوس الذي يقول: «تنتج من الخطيئة، كما من نبع، أمراضُ الإنسان ومآسيه وعذاباته أيضًا»[٥]. ويتابع القدّيس بوبوفيتش: «عند السقوط في الخطيئة، تجرَّد الجسد من صحّته الأولى... وأصبح قابلاً للأمراض، فاسدًا وخاطئًا. قبل الخطيئة، كان ما يزال في انسجام تامّ مع الروح. وأمّا بعد الخطيئة، فقد توقّف هذا الانسجام... ظهر موت الجسد كنتيجة لا بدّ منها لخطيئة الجدّين، لأنّ الخطيئة زرعت في الجسد المبدأ المدمِّر، مبدأ المرض»[٦].

والواقع

اللّه لا يرسل المرض، بل «يسمح» به و«يستعمله»، في حكمته الكلّيّة، لما فيه خلاصنا ومنفعتنا. وهكذا فهو «يسخِّر» مرض الجسد لخلاص الروح. وفي هذا الإطار، نذكر إصابة أيّوب الصدّيق بالقرحة التي ملأت جسده، وذلك بعد أن طلب الشيطان إلى اللّه أن يصيب جسده، فأعطاه اللهُ الإذن بذلك، ولكن منعه من أن يمسّ روحه (راجع: سفر أيّوب).

بالطبع، يسمح الربّ بأن نمرض، لأنّ بالمرض فائدة عظيمة يجنيها مَن أراد الاستفادة منه. بالمرض، نحن ندرك ضعفنا وهشاشتنا وقصر حياتنا. بالمرض، نعي وضعنا البشريّ بالضبط، من دون أوهام الطفولة أو غرور الشباب. باختصار، بالمرض نتواضع، ننسحق، نتخشّع، نذكر الموت ونتذكّر خطايانا فنتوب، نلين، نزهد في محبّة الدنيا، يرقّ شعورنا ونصلّي من أجل الآخرين المتألّمين، نتّحد روحيًّا بكلّ المتألّمين والمحتاجين... أو هذا عمومًا.

ويقول القدّيس مكسيموس المعترف: «إنّ الألم يطهِّر الروح المصابة برجاسة اللذّة الحسّيّة، ويفصلها تمامًا من الأمور المادّيّة... لهذا السبب يسمح اللّه، في عدالته، للشيطان بأن يُبلي الناس بالعذابات»[٧].

هل يقوّمنا اللّه رغم إرادتنا؟

قال الرسول يعقوب: «لاَ يَقُلْ أَحَدٌ إِذَا جُرِّبَ إِنِّي أُجَرَّبُ

4- On The Human Condition. Saint Basil the Great, Verna E.F. Harrison. St Vladimir's Seminary Press, 2005. P 66-67.
5-Justin Popovitch, Philosophie Orthodoxe de la vérité, Tome I, p 308
6- Ibid.
7- Saint Maximus the Confessor, Philokalia vol. 2, 178, no. 64.

06-maha ofaish(3):Layout 1 5/13/12 7:07 PM Page 136

مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، لأَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُجَرَّبٍ بِالشُّرُورِ وَهُوَ لاَ يُجَرِّبُ أَحَدًا (١: ١٣).

وقد استفاض آباء الكنيسة في شرح فكرة أنّ اللّه لم يخلق الشرّ ولا يرسله إلى الناس. ولكن، لو أنّنا سلّمنا بأنّ الأمراض هي خير، كما يذكر الأستاذ لارشي، لأنّها تسهم في تقويم البشر وتاليًا في خلاصهم، فهل هذا يعني أنّ الربّ يؤدّبنا ويقوّمنا ويُصلحنا ويمنحنا الخلاص، رغم إرادتنا؟ فأين هي، إذًا، الحرّيّة التي خلقنا عليها؟ ألا يكون اللّه يناقض نفسه؟ حاشا.

ويلفتنا، في هذا الإطار، ما جاء في إنجيل يوحنّا حين مرّ الربّ يسوع أمام كسيح بركة بيت حسدا: «... فلمَّا رآهُ يَسوعُ مُستَلقيًا، عرَفَ أنَّ لَه مُدَّةً طَويلةً على هذِهِ الحالِ، فقالَ لَه: «أتُريدُ أنْ تُشفى؟» (٥: ٥– ٦). إن كان الربّ يسأل المريض أن يعلن عن إرادته بالشفاء قبل أن يشفيه، فكيف يمكننا أن نقول بعد إنّ اللّه يرسل لنا الأمراض ضدّ إرادتنا؟

هل كان من داعٍ للتجسّد؟

في النهاية، فكرة الأستاذ لارشي تناقض، أيضًا، تدبير التجسّد الإلهيّ. فلو كان بالإمكان أن يقوِّمنا اللّه ويخلِّصنا من طريق الأمراض، فهل كان من الضروريّ بعد ذلك أن يتجسّد؟

كلمة أخيرة

كلام الأستاذ لارشي واعتقاد البعض، بشكل مغلوط، أنّ اللّه هو المسؤول عن الأمراض التي تصيبنا ينسخ صورة الإله الرحيم، الحنون، السامريّ الشفوق، المطبِّب، الجزيل الرحمة، الكلّيّ التحنّن الذي لأجلنا احتمل الإهانة والصلب وأشنع أنواع الموت... ويحلّ محلّها صورة الإله الديّان القاسي، المخيف، الذي يتلذذ بآلام البشر وعذاباتهم.

وإذ يشهد التاريخ البشريّ على خوف الإنسان في كلّ عصر ومكان من الألم ومقاومته المرض (والموت) وسعيه للتغلّب عليهما بكلّ الوسائل، نلاحظ، اليوم، أنّ جزءًا هائلاً من المجهود الإنسانيّ يُهدر في سبيل الاحتفاظ بالصحّة الجسديّة والجمال الخارجيّ، ولمحاولة إطالة العمر... وتتزايد أعداد الناس المحمولين بهذا التيّار والذين ينفقون الأموال الطائلة لهذه الغايات. وبنتيجة هذه الأجواء التي يكاد يضيع فيها مفهوم الصحّة الروحيّة، الأساس، يسمح البشر اليوم، حين يصبح أحد الأمراض خطيرًا أو مميتًا، بوضع حدٍّ لحياة المريض، الأمر الذي سمّته حكمتهم الأرضيّة «الموت الرحيم»، بما أنّ المرض ما بقي لهؤلاء سوى مجرّد عذاب قاس مجّانيّ، لا معنى له ولا فائدة منه.

في عصر تتآكله أفكار سامّة، نلاحظ التوجه العامّ القائم على لوم الربّ على جميع أنواع الأمراض والضيقات والمآسي التي تصيبنا، هو الخير الأسمى والصلاح المطلق. حلّ واحد وحيد أمام هذه البشريّة المريضة والمعذبة بخطاياها وبابتعادها عن النور الحقيقيّ: العودة إلى أحضان الإله الرحيم الذي يمسح عن كلّ وجه كلّ دمعة.●